علماؤنا يعودون إلى المجتمع

لأزهري كبير

... وأخيراً حققت الآمال العظيمة التي طمح إليها دعاة الإصلاح في مصر والشرق الإسلامي، وتوّج هذا الجهاد الحافل بالفوز والتوفيق، فأنصت الأزهر لهذه الدعوة الصارخة، وآمن بها، وأخذ يضيف إلى تاريخه التليد صفحات طريفة مجيدة. فقد أسابيع قرأنا أن عضواً بارزاً من جماعة كبار العلماء قدم إلى الجماعة اقتراحاً جديداً تشيع فيه الرغبة الصادقة في توجيه الثقافة في هذه الجامعة العظيمة وجهة جديدة صالحة تجمع بين أمرين عظيمين:

الأول: بعث روح الإنتاج العلمي، والاضطلاع بأعبائه في شتى فروع الثقافة الدينية.

الثاني: العناية بشئون المجتمع، وبحث مشكلاته الخلقية والاجتماعية والاقتصادية وبيان موقف الدين الإسلامي حيالها.

ثم علمنا أن هذا الاقتراح يشق طريقه نحو التنفيذ، فأيقنا أن الأزهر مصمم على السير إلى أبعد غايات الإصلاح، مؤمن بتوفيق الله ورعايته.

ولا يخالجنا شك في أن الجماعة — وقد ضمت عناصر جديدة ممتازة — ستظفر بتحقيق هذه الآمال، وستكتب في تاريخ الأزهر الحديث أروع الصفحات. وليس هذا على الجماعة بكثير فقد عنى بها الأستاذ المراغي عناية كريمة فآثر بعضويتها أولى الكفايات من العلماء الحريصين على مسايرة الحياة إلى أسمى غاياتها، وتوجيه الحياة الاجتماعية بنور الدين وهدايته.

إن المجتمع في حاجة إلى الأزهر، والأزهر في حاجة إلى المجتمع، ولا ريب في أن اتجاه علمائنا نحو المجتمع وبحث شئونه ومشاكله ستجعل الناس على بينة من دينهم، وتهديهم إلى سبل الخير والفضيلة والرشاد.

لقد مضى زمن الجدل العقيم في العقائد، والبحث النظري في القشور دون اللباب، وسئمنا الكلام في المياه التي يجوز بها التطهير والتي لا يجوز، وفي إثبات كرامة الأولياء ونفيها، وفي طبقات السماء أمن فضة هي أم من ذهب، إلى غير ذلك؛ وها نحن أولاء نشاهد إشراق عهد جديد يشارك فيه علماؤنا الناس، وينزلون من عزلتهم التقليدية إلى حيث يسير الناس وتتحرك الحياة، ويضعون شئون المجتمع ومشاكله نصب أعينهم، ويقفون منه موقف الناصح الأمين.

ولعمري لقد ملأ الإيمان قلوب الناس، بل وعقولهم يوم كان الدين روحاً وعقيدة وخلقاً وعملاً. ولم يتمخض المسلمون بأعظم من الجدل في العقيدة والخلاف في الدين، حتى انحلّ ما كان معقوداً من ألفتهم، وخمد ما كان متأججاً من روحهم.

ولقد ظهر الغزالي في عصر مفعم بالفتن والاضطرابات والجدل والخلاف، فدعا الناس إلى دين الله بلغة العاطفة والقلب حين رأى الدعوة إليه عن طريق الخصومة والجدل داعية فتنة وأثرة ضلال؛ ولكن الغزالي يئس من المجتمع لأنه كان يود أن يراه مجتمع ملائكة أبرار لا مجتمع شياطين أشرار، فزهد في الحياة، وعزف عن المجتمع، واعتزل الناس، إيثاراً لسلامة الدين والنفس وبعداً عن شرور المجتمع وسيئاته؛ وقلده في مذهبه الاجتماعي أصحابه ومريدوه، فظلت تلك الروح نزعة لعلمائنا حتى العصر الحديث.

ولقد كانت أسمى غاية للأستاذ الإمام محمد عبده من إصلاح الأزهر أن يحمله على الاندماج في المجتمع، والتغلغل في أعماقه، والسمو به — عن طريق الإرشاد والتهذيب الديني الصحيح — إلى أبعد ما يستطاع من غايات؛ وكان يريد من وراء ذلك أن يذكي في الأمة الإسلامية روح القوة والفضيلة، وأن يدفع بها إلى الحياة الكريمة العزيزة، لتستطيع أن تذود عن حريتها، وتحافظ على تراثها المسلوب، وحتى يتسنى لها — إذا ثابت لتسير في هذا المضمار — أن تستعيد ما كان لها من مجد باذخ